أسماء
نشرة تستعرض سير وتراجم مضيئة متصلة بتاريخ الشيعة وأهل البيت عليهم السلام
٧

المحرر:
صادق جعفر
رضوى للانتاج الثقافي

انتفاضة التوابين
سنة ٦٥هـ

بعد موت معاوية عام ٦٠هـ أرسل أهل الكوفة آلاف الكتب للإمام الحسين عليه السلام يدعونه للقدوم إليهم ليكونوا أنصاراً له لتقويض النظام الأموي، وكان في مقدمتهم قادة الحركة التي سُمّيت فيما بعد بالتوابين كسليمان بن صرّد والمسيّب بن نجبة وغيرهم، وحينما وصل الإمام عليه السلام إلى العراق كان أكثر أولئك القوم قد تعرضوا إما إلى الحبس أو القتل أو المطاردة من قبل ابن زياد حاكم الكوفة وقتئذ، فاضطروا إلى الاختباء والابتعاد عن عيون السلطة ورصدها.

موجز قصة التوابين:

ولكن ما حدث من مقتل الإمام الحسين عليه السلام في كربلاء وكونهم بعيدين عنه لم يستطيعوا نصرته والدفاع عنه جعلهم يخرجون من مخابئهم ويتحركون للثأر مما حصل، وذلك بدءً من سنة ٦١، ولعلهم شرعوا في ذلك مع قرب نهاية تلك السنة، فبدأوا بجمع الرجال والسلاح والتعاهد على الانتقام من السلطة الأموية على ما فعلته بسبط رسول الله صلى الله عليه وآله وسيد شباب أهل الجنة.

وحينما مات يزيد وهرب ابن زياد إلى الشام وسقطت الكوفة بيد كل من له ثقل ومادة، أظهر التوابون أمرهم وحشّدوا لهم جيشاً من آلاف المقاتلين وتوجهوا إلى طريق الشام للقاء جيوش الأمويين بقيادة عبيدالله بن زياد، والتقى الطرفان في منطقة تدعى عين الوردة في أرض الجزيرة، واقتتلوا هناك لأيام انتهت بمقتل أغلب التوابين وبإصابات كبيرة وشديدة في الأمويين والشاميين.

من هم قادة التوابون؟

قاد حركة التوابين خمسة من الأشخاص كلهم من رؤوس الشيعة في العراق آنئذ، ولهم تاريخ ومواقف في نصرة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام في زمن خلافته في الكوفة، وقد شاركوا في أغلب حروبه إن لم يكن كلها، والأكيد أنهم شاركوا في صفين، وكان بعضهم قادة ألوية وكتائب كسليمان بن صرد والمسيب بن نجبة ورفاعة بن شداد، وبعضهم كان له حضور في المعارك كعبدالله بن وال حيث كان شاباً في ذلك الوقت، وعبدالله بن سعد بن نفيل الأزدي. أما رأسهم أي سليمان بن صرد فقد كان صحابياً، وكان اسمه (يسار) فسمّاه رسول الله صلى الله عليه وآله (سليمان)، وحين استشهد في عين الوردة كان قد ناهز ٩٣ عاما.

فهؤلاء كانوا من قدامى الشيعة وخلّصهم، وقد أصابهم بعض الثناء بصورة مباشرة من قبل الأئمة عليهم السلام، فسليمان تعرض لعتاب شديد من قبل أمير المؤمنين عليه السلام بسبب عدم مشاركته في حرب الجمل، فتشكّى سليمان لدى الإمام الحسن المجتبى عليه السلام، فقال له الإمام الحسن: «إنما يُعاتب من تُرجى مودته ونصيحته»، وقال أيضاً له «ما أنت عندنا بالضنين».

وحين رآه أمير المؤمنين عليه السلام ووجهه مضروب بالسيف في صفين، قال: ﴿**فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا**﴾ (الأحزاب ٢٣)، فأنت ممن ينتظر وممن لم يبدل.

فقال: يا أمير المؤمنين، أما لو وجدت أعواناً ما كُتبت هذه الصحيفة أبداً، أما والله لقد مشيت في الناس ليعودوا إلى أمرهم الأول فما وجدت أحداً عنده خير إلا قليلا (المنقري).

وهو والمسيب بن نجبة ومجموعة من الشيعة كانوا ممن عرجوا على الإمام الحسن عليه السلام في المدينة المنورة بعد الصلح بسنتين (الشريف الرضي) ودعوه إلى نقض الصلح ومحاربة معاوية، فعزم عليهم الإمام عليه السلام بأن يذعنوا لتدبيره، فسليمان حينما وقع الصلح لم يكن بالكوفة، وجاء فيما بعد وكان كل شيء قد تم وانتهى، والقصد من هذا

الحديث توضيح مدى اهتمام هؤلاء القوم بنصرة آل بيت رسول الله ﷺ.

ما هي غاياتهم وأهدافهم وتطلعاتهم؟

يمكن الادعاء بأن الغايات الأساسية لحركة التوابين، والنتائج الكبرى التي سعوا إليها، تمثّلت في أمور منها:

١- كسر حالة الخوف والحصار السياسي والعقائدي التي فُرضت على شيعة آل البيت عليهم السلام بعد واقعة الطف، وقلب المعادلة التي أراد النظام الدموي الأموي إرسائها بقمع الشيعة وتكسير رؤوسهم وإخضاعهم إلى الأبد، فصار أمر الشيعة مع التوابين ظاهراً متجاسراً متحدّياً وهجومياً، وصار النظام في موقع الخائف والمدافع والمترنّح ليس فقط في العراق وإنما في الشام أيضاً، لدرجة أن الأمويون حين وصل لهم ابن زياد في الشام كانوا على وشك التوجه إلى الحجاز لمبايعة ابن الزبير على الخلافة.

٢- إظهار قوة الشيعة ومدى ولائهم لأهل بيت نبيهم ﷺ لدرجة الفداء بالنفس والروح، وأنهم لن يستكينوا إذا ما تعدّى أحد على الأئمة من آل بيت النبي ﷺ، بل سيبذلون الغالي والنفيس للانتقام لهم، وأنهم يهتمون شديد الاهتمام لسلامة أئمتهم ولا يرضون بالتعرض لهم بأي شكل من الأشكال.

أما الأهداف المباشرة التي أعلنوها لحركتهم، فقد تمثّلت في:

١. الانتقام من قتلة الإمام الحسين صلوات الله عليه، سواء تمثّل ذلك في النظام الأموي وقادته أم في جيوشه وكتائبه.

٢. التكفير عن ذنبهم في عدم نصرتهم للإمام عليه السلام حين قدم إلى العراق واستجاب لدعوتهم، فلم يجد منهم إلا الخذلان والنكوص عن نصرته.

وقد بدى ذلك من كلام المسيّب بن نجبة في بيت سليمان حين شرعت الحركة، حيث قال: قد كنا مغرمين بتزكية أنفسنا وتقريظ شيعتنا حتى بلى الله أخيارنا فوجدنا كاذبين في موطنين من مواطن ابن ابنة نبيّنا ﷺ، وقد بلغتنا قبل ذلك كتبه وقدمت علينا رسله وأعذر إلينا يسألنا نصره عوداً وبدءً وعلانيةً وسراً، فبخلنا عنه بأنفسنا حتى قُتل إلى جانبنا، لا نحن نصرناه بأيدينا ولا جادلنا عنه بألسنتنا ولا قوّيناه بأموالنا ولا طلبنا له النصرة إلى عشائرنا، فما عذرنا إلى ربنا وعند لقاء نبينا ﷺ وقد قُتل فينا ولده وحبيبه وذريته ونسله؟ لا والله لا عذر دون أن تقتلوا قاتله والموالين عليه، أو تُقتلوا في طلب ذلك، فعسى ربنا أن يرضى عنا عند ذلك، وما أنا بعد لقائه لعقوبته بآمن.

وقد كان للتوابين تطلعات أشاروا إليها حين تقابلوا مع الجيش الأموي في عين الوردة، فقد دعاهم الشاميون إلى النزول على طاعة عبدالملك بن مروان، بينما أفصح التوابون عن مطالبهم كالتالي، كما ذكرها حميد بن مسلم في روايته:

١. أن يدفعوا إليهم عبيدالله بن زياد فيقتلونه.

٢. وأن يخلعوا عبدالملك بن مروان.

٣. وأن يُخرجوا آل ابن الزبير من البلاد.

٤. وأن يردّوا الأمر إلى أهل بيت النبي ﷺ.

كيف تطورت طبيعة حركتهم الاحتجاجية؟

بدأت حركة التوابين كتجمع شيعي خاص من حوالي مائة شخص تعاهدوا على القيام بقصد الانتقام لمقتل الإمام الحسين صلوات الله عليه، وحين تخلخل النظام الأموي واهتزز وضعه في العراق أصبحت حركتهم أكثر ظهوراً وأوسع انتشاراً، وتحوّلت إلى حركة جماهيرية عامة حين أصبحت الكوفة تحت ولاية الزبيريين، فلم يكن في ظاهر الأمر من اختلاف أو صراع بين الجهتين، فهؤلاء يريدون الانتقام لمقتل الإمام عليه السلام وأولئك لم يمانعوا، وكان للإثنين عدواً مشتركاً هو النظام الأموي، فأظهر التوابون أمرهم وبدأوا يتحركون ويعبّؤون عامة

الناس لدعم حركتهم وإسنادها جهاراً نهارا.

وحين اشتد عودهم وجمعوا كتلة وازنة من المقاتلين، تحولت تلك الحركة إلى انتفاضة مسلّحة في وجه النظام الأموي، وكانت خاتمتها هي المواجهة في عين الوردة.

هل كانت حركة التوابين واعية أم انفعالية؟(جعفر)

وردت العديد من الإشكالات على حركة التوابين من قبل أغلب من كتب عنهم، ولُبّ هذه الإشكالات تتمحور حول خروجهم وهم قلة من المتطوعين في وجه جيش ضخم يمثل دولة قائمة، كما أُخذ عليهم عدم تحصّنهم بالكوفة، وخروجهم للقتال في منطقة مفتوحة هي صحراء الجزيرة، وغير ذلك من الإشكالات التي عُبّر عنها بكلمات مثل إنها حركة عاطفية وانفعالية بمعنى غير عقلانية، وإنها حركة مستعجلة لم تتحضر عسكرياً بما فيه الكفاية، وإنها غير ناضجة بمعنى أنها كانت تريد إسقاط نظام قائم وإمبراطوري بعدد قليل من المقاتلين، وما أشبه ذلك.

ولكن لو نظرنا إلى الأهداف الحقيقة للحركة والتي أعلن عنها قادتها منذ اليوم الأول لشروعها، لوجدنا بأنها حركة منطقية وعقلانية بل وعبقرية، وأن القائمون عليها أدّوا أدوارهم بأفضل ما يمكن أن يكون، وأنهم وظّفوا الموارد القليلة التي أتيحت لهم ببراعة هائلة.

فمثلاً فيما يتعلق بحجم الإعداد للمواجهة، فمن الواضح غياب التكافؤ بين المعسكرين من ناحية العتاد والعدّة، ولكن لا ننسى بأن سعي التوابين لم يكن للنصر العسكري وإنما للنصر السياسي والمعنوي الذي يعيد الأمل والتوثّب إلى وضع الشيعة ويكسر حالة التراجع والانكفاء، ولعل القلّة من هذا المنظور أفضل من الكثرة، فالجرأة والشجاعة والإقدام وعدم التهيّب تبدو أوضح حينما يكون المتصدي للأمر ذو عسرة في العدّة والعتاد ومع ذلك تراه يقدم بكل جرأة وبلا إجفال أو تردد، ولو كانت عدّة التوابين مكافئة لعدّة الأمويين لما عُدّ ذلك بطولة ولا جرأة ولا وسيلة لكسر حواجز الخوف والتوجّس لدى جمهور الشيعة، بل لكانت هزيمتهم لو حصلت حينئذ لتُكرّس حالة التراجع لدى الشيعة لأنها ستُظهر عدم قدرتهم في مواجهة الأمويين حتى ولو كانوا في أفضل حال، والحال أن ما جمعه التوابون من عدّة وعتاد هو أقصى ما قدروا عليه في ذلك الوقت، ولم يكن من صالح استراتيجيتهم الانتظار إلى ما لا نهاية لشيء قد لا يتحقق، خصوصاً إذا كان المطلوب منهم أن يبادروا باقتحام غمار المواجهة والتحدّي.

من ناحية أخرى يمكن القول أيضاً أنه يحدث في التاريخ والسنن بصورة لا يمكن إنكارها أن تتغلب فئة قليلة على فئة كثيرة، وفي حالة الشيعة في ذلك الوقت كان التوابون يتشكلون من أربعة آلاف مقاتل بينما كان يقابلهم في معاركهم اليومية في عين الوردة من جيش الشام عشرة آلاف مقاتل، أي كانوا بمعدل اثنين إلى خمسة، فاحتمال النصر يبقى قائماً ولو بنسبة ضئيلة، مع ملاحظة أن جيش الشام كان أكثر من ذلك بكثير وإنما كانت العشرة آلاف هي العدة التي يوجهها ابن زياد للقتال بصورة مباشرة آنذاك، بحيث يكون البقية في حالة استراحة وانتظار ليستبدلهم في اليوم التالي، وهذا الشيء لم يكن متاحاً للتوابين.

والمثال الذي يمكن إيراده هنا هو الحرب التي نشبت بعد ذلك بسنة فقط بين إبراهيم الأشتر وبين جيش الشام عند نهر الخازر، حيث أن جيش ابن الأشتر كان يقل عن عشرون ألف مقاتل، وجيش ابن زياد كان يربو إلى ثلاثة وثمانين ألف مقاتل، أي بنسبة حوالي اثنان إلى ثمانية، ومع ذلك انتصر ابن الأشتر وانهزم الجيش الشامي هزيمة منكرة.

– أما لماذا لم يقاتل التوابون في الكوفة وخرجوا للقاء الجيش الأموي على حدود الشام، فيمكن تعليل ذلك بالتالي:

١. إن الخروج لمواجهة جيش الشام القوي والكبير يعكس إرادة وعزيمة أقوى من مقاتلة أفراد وجماعات متواجدة في الكوفة من قتلة الإمام الحسين عليه السلام، وبالتالي فإن انعكاساته المعنوية والسياسية ستكون أكبر.

٢. إن جيش الشام بقيادة ابن زياد يمثّلان رأس النظام الأموي مباشرة، والضربة في الرأس تكون أشد وقعاً من ضرب الذيول والأتباع المتواجدين هنا وهناك.

٣. إن الشيعة في تلك اللحظة لم يكونوا مهيّئين لصراع داخلي في الكوفة، فالكوفة مليئة بعتاد وعدد كبير من قتلة الإمام الحسين عليه السلام (كان عدد الذين قاتلوا الإمام عليه السلام في كربلاء يصل إلى ثلاثون ألف مقاتل)، وهؤلاء لا تزال قبائلهم معهم، كما إن الكوفة أصبحت قاعدة جديدة لحكم الزبيريين، وهؤلاء كانوا من مبغضي آل بيت النبي صلى الله عليه وآله وسلم، ولو نشبت مواجهة آنذاك بين الشيعة وقتلة الإمام عليه السلام لانضوى الزبيريون والقتلة في جبهة واحدة ضد الشيعة.

٤. لم يرغب التوابون في تحويل قضيتهم المبدئية والاستراتيجية إلى صراع قبلي وثارات عشائرية وهم في ذلك الوضع، ولو أنهم انتصروا على الأمويين في عين الوردة ورجعوا إلى الكوفة بتلك النتيجة لكان لهم مع قتلى الإمام عليه السلام المتواجدين بالكوفة شأن آخر.

وعلى كل حال فقد دعا بعض الشيعة سليمان إلى هذه الفكرة (أي شن الحرب في الكوفة)، فقال لهم: (إني قد نظرت فيما تذكرون، فرأيت أن قتلة الحسين هم أشراف أهل الكوفة وفرسان العرب وهم المطالبون بدمه، ومتى علموا ما تريدون وعلموا أنهم المطلوبون كانوا أشد عليكم، ونظرتُ فيمن تبعني منكم فعلمت أنهم لو خرجوا لم يدركوا ثأرهم ولم يشفوا أنفسهم ولم ينكوا في عدوهم وكانوا لهم جزرا).

– وقد يقال أيضاً، لماذا لم يستولي التوابون على الحكم في الكوفة؟

والجواب هو أنهم لو حاولوا ذلك لتحولت قضيتهم إلى عملية استيلاء على الحكم والسلطة ولتورطوا في كل ما يتعلق بإدارة الحكم والسلطة، ولما تمكّنوا من تعبئة الرأي العام الشيعي بالصيغة الاستراتيجية التي استهدفوها أصلاً، ومن ناحية أخرى لم تكن تلك العملية مضمونة على كل حال، ولكانوا قد خاضوا مخاطرة قد تُودي بقضيتهم الأم إلى الانتكاسة والفشل.

شعار (يا لثارات الحسين):

التوابون هم أول من رفع هذا الشعار وجهر به، وهذا الشعار يختزل فيه معاني كثيرة، منها:

١. إنه شعار ولائي يرتبط بالولاء لأهل بيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بصورة واضحة لا تقبل اللبس.

٢. إنه شعار محدد وواضح الغاية، فهدفه أخذ الثأر، وليس أخذ الحكم أو حيازة السلطة السياسية، ولو أتت هذه النتائج كثمرة للتحرك فإنها ستسترشد بهذا الشعار في الاستمرار (وهو ما حدث مع المختار فيما بعد).

٣. إنه شعار تعبوي، فقضية الحسين عليه السلام أشعلت الوضع السياسي برمّته في الدولة الأموية، وعبّأت شيعة أهل البيت عليهم السلام عسكرياً وسياسياً وعقائدياً بسرعة هائلة أينما كانوا.

٤. إنه شعار مكثّف لا يحتاج إلى شرح ولا تأويل، ويكفي النطق به ليختزل في معانيه انتفاضة التوابين كلها.

٥. إنه شعار يحوي في مضامينه حالة الفداء والاستعداد للتضحية والموت والفناء في سبيل الهدف، فالثأر عملية تستدعي المواجهة ربما إلى ما لا نهاية (إلى أن يفنى القائمون عليه من الطرفين أو أحدهما)،

وبالتالي فإن درجة المخاطرة فيه كبيرة، ولن يتصدّى أحد لحمل هكذا شعار ما لم يكن مستعداً لدفع الثمن طوعاً لا كُرها.

هل كان التوابون على اتصال بالإمام زين العابدين عليه السلام؟

هذه مسألة مهمة جداً، فهل يعقل أن رؤوس الشيعة وخواصها وقادتها كانوا ليقوموا بفعل وعمل بهذا الحجم والحساسية دون أية إشارة أو إجازة أو أمر أو إرشاد من إمام عصرهم عليه السلام؟

لم تكن تلك من عادات الشيعة في أي وقت، سواء ظهر ذلك للعوام أم لم يظهر، وخصوصاً اذا كان الأمر يرتبط ببذل الأرواح والدماء. ومع ذلك لا نجد في النصوص التاريخية أو الدينية ما يشير إلى ذلك بصورة مباشرة أو حتى غير مباشرة، ولكننا نظن بأن هذه الحركة كانت على غاية الارتباط بالإمام عليه السلام، وتحليلنا يقوم على ما يلي:

كان الإمام عليه السلام يعيش حالة من التقيّة الشديدة في تلك الفترة، وكان قد فوّض متابعة الأمور السياسية بصورة مباشرة إلى عمّه محمد بن الحنفيّة رضوان الله عليه، بل وحتى ابن الحنفية كان يمارس درجة عالية من التقيّة في هذا الشأن، ولكن لم يكن ذلك ليمنع الشيعة من التوجّه للمدينة المنورة لاستبيان شرعيّة ما يجري أو للاسترشاد بتوجيهات وأوامر بيت العصمة والإمامة فيما يجري من أحداث ووقائع، وقد شهدنا ذلك بوضوح في أمر الشيعة الذين قاموا مع المختار بعد ذلك ببضعة أشهر.

ولو قال قائل، لماذا أفصح المختار عن علاقته بمحمد بن الحنفية ولم يُفصح التوابون بذلك فيما لو كانت لهم علاقة؟ فنقول:

١. إن التوابين لم يكونوا مُطالبين بالإفصاح عن ذلك، فلم يُسائلهم أحد عن علاقتهم بالإمام عليه السلام، بينما تعرّض المختار لهذه المسائلة، وذهب ممثلين عن الشيعة بأنفسهم إلى المدينة المنورة والتقوا بابن الحنفية وبالإمام السجاد عليه السلام وجهاً لوجه.

٢. إن المختار كان بحاجة إلى كسب تأييد بعض زعماء الشيعة من ذوي النفوذ كابن الأشتر، ولم يكن باستطاعته ذلك إلا بالاستعانة بشرعية آل البيت عليهم السلام وممثلهم الظاهر آنذاك أي ابن الحنفية، بينم التوابين استغنوا بمن التحق بهم طوعاً وكتبوا للشيعة في أماكن أخرى اعتماداً على سمعة قائدهم سليمان الذي كان رأس الشيعة آنذاك في العراق كله وكان كبير السن وله تاريخ طويل ومعروف مع أئمة آل البيت عليهم السلام.

٣. إن المختار كان قد قاتل الأمويين مع ابن الزبير لفترة قصيرة ولكن كانت كافية لإثارة الشك في ولائه عند البعض، لذلك كان محتاجاً إلى إظهار الواجهة التي يعمل خلفها والمتمثلة في محمد بن الحنفية وقيادة الإمام عليه السلام، بينما لم يتورط التوابون في

العروج على كربلاء، والتعاهد عند قبر الإمام الحسين عليه السلام:

قال الطبري: فصبّحوا قبر الحسين فأقاموا به ليلةً ويوماً يُصلّون عليه ويستغفرون له.

(قال) فلما انتهى الناس إلى قبر الحسين صاحوا صيحةً واحدة وبكوا، فما رُئي يوم كان أكثر باكياً منه.

(قال أبو مخنف) وقد حدّث عبدالرحمن ابن جندب، عن عبدالرحمن بن غزية، قال: لما انتهينا إلى قبر الحسين عليه السلام بكى الناس بأجمعهم، وسمعت جُلّ الناس يتمنون أنهم كانوا أصيبوا معه، فقال سليمان: اللهم ارحم حسيناً الشهيد ابن الشهيد المهدي ابن المهدي الصدّيق ابن الصدّيق، اللهم إنّا نُشهدك أنّا على دينهم وسبيلهم وأعداء قاتليهم وأولياء محبيهم.

ثم انصرف ونزل، ونزل أصحابه.

(قال أبو مخنف) حدثنا الأعمش، قال حدثنا سلمة بن كهيل، عن أبي صادق، قال: لما انتهى سليمان بن صرد وأصحابه إلى قبر الحسين، نادوا صيحة واحدة: يا رب، إنّا قد خذلنا ابن بنت نبيّنا، فاغفر لنا ما مضى منّا وتُبْ علينا، إنك أنت التّواب الرحيم، وارحم حسيناً وأصحابه الشهداء الصدّيقين، وإنّا نُشهدك يا رب أنّا على مثل ما قُتلوا عليه، فإن لم تغفرهُ لنا وترحمنا لنكونّن من الخاسرين.

(قال) فأقاموا عنده يوماً وليلة يُصلّون عليه ويبكون ويتضرعون، فما انفكّ الناس من يومهم ذلك يترحمون عليه وعلى أصحابه، حتّى صلّوا الغداة من الغد عند قبره، وزادهم ذلك حنقاً، ثم ركبوا فأمر سليمان الناس بالمسير، فجعل الرجل لا يمضي حتى يأتي قبر الحسين فيقوم عليه فيترحم عليه ويستغفر له، (قال) فوالله لرأيتهم ازدحموا على قبره أكثر من ازدحام الناس على الحجر الأسود.

موقف كهذا مما أغناهم عن الكشف عن القيام بخطوة شبيهة بما قام به المختار.

وعلى كل حال لا يمنع بأن الإمام زين العابدين عليه السلام كان يلتقي بقادة التوابين كسليمان وبن نجبة وغيرهم خفيةً حين كان يرتحل إلى العراق سرّاً في تلك السنوات بالذات، فالإمام عليه السلام بقي في السنوات الأولى بعد عودته من كربلاء في بادية المدينة المنورة، وكان يقصد العراق سرّاً دون أن يعلم به أحد ويرجع في نفس اليوم، وهناك رواية واضحة عن الإمام الباقر عليه السلام في هذا الشأن حيث قال: كان أبي علي بن الحسين عليه السلام قد أتخذ منزله من بعد قتل أبيه الحسين بن علي عليه السلام بيتاً من الشَّعر وأقام بالبادية، فلبث بها عدة سنين كراهية الناس وملابستهم، وكان يصير من البادية بمقامه بها إلى العراق زائراً لأبيه وجدّه عليهما السلام، ولا يُشعر بذلك من فعله.

وهناك رواية واضحة تشير إلى أن الإمام عليه السلام كان يلتقي ببعض الشيعة في بعض هذه الرحلات.

روى ابن طاووس، فقال:[فرحة الغري] ذكر الحسن بن الحسين بن طحال المقدادي رضي الله عنه: أن زين العابدين عليه السلام ورد إلى الكوفة، ودخل مسجدها وبه أبو حمزة الثمالي وكان من زُهّاد الكوفة ومشايخها، فصلّى ركعتين.

قال أبو حمزة: فما سمعت أطيب من لهجته، فدنوت منه لأسمع ما يقول، فسمعته يقول (إلهي إن كان قد عصيتك، فأني قد أطعتك في أحب الأشياء إليك، الإقرار بوحدانيتك منّاً منك عليَّ لا منّاً منّي عليك) - (قال الراوي: والدعاء معروف) – ثم نهض.

قال أبو حمزة: فتبعته إلى مناخ الكوفة، فوجدت عبداً أسود معه نحيف وناقة، فقلت: يا أسود! من الرجل!؟

فقال: أَوَتَخْفَى عليك شمائله!؟ هو علي بن الحسين.

قال أبو حمزة: فأَكْبَبْتُ على قدميه أقبلها، فرفع رأسي بيده وقال: لا يا أبا حمزة! إنما يكون السجود لله عزَّ وجل.

فقلت: يا ابن رسول الله، ما أقدمك إلينا؟

قال عليه السلام: ما رأيت، ولو علم الناس ما فيه من الفضل لأتوه ولو حبواً، هل لك أن تزور معي قبر جدي علي بن أبي طالب؟

قلت: أجل.

فسرت في ظل ناقته يحدثني، حتى أتينا الغريين، وهي بقعة بيضاء تلمع نوراً، فنزل عن ناقته ومرّغ خديه عليها، وقال: يا أبا حمزة، هذا قبر جدي علي بن أبي طالب عليه السلام.

ثم زاره بزيارة أولها: (السلام على اسم الله الرضي، ونور وجهه المضي)، ثم ودّعه ومضى إلى المدينة، ورجعت أنا إلى الكوفة.

ويلاحظ هنا أمور:

١. أن الإمام عليه السلام كان يلتقي أحياناً برؤوس شيعته وأتباعه في هذه الرحلات، ولم يكن أحد يعلم بذلك إلا من يلتقي به.

٢. أن هذه الرواية صدرت في الأصل عن أبي حمزة الثمالي، فالحديث فيها هو بلسان المتكلم، ولو أن أبو حمزة لم يسرد الرواية لما علم أحد بلقائه بالإمام عليه السلام في ذلك الحال.

٣. أن أبو حمزة في ذلك الوقت المبكر من إمامة السجاد عليه السلام لم يكن يعرف شكل وصورة الإمام ولكنه كان يعرف بإمامته ومقرّاً بها، ولذلك بمجرد أن أخبره الخادم بشخصية الإمام عليه السلام أكبَّ على رجليه يقبلها وأبدى له مظاهر الانقياد والولاء.

٤. أن أبو حمزة لم يستغرب أبداً ولم يسأل الإمام عليه السلام عن كيفية وصوله الكوفة ورجوعه المدينة المنورة في نفس اليوم، فالشيعة كانوا على دراية بأن أئمتهم عليهم السلام ممن تُطوى لهم الأرض وتخضع لهم السنن الكونية وأن كل شيء في الكون مُسخّر لخدمتهم ويدين بإمامتهم، وأنهم متى ما شاءوا وظفوا تلك القدرات في سبيل الدين ورعايته.

بداية التعبئة:

قال الطبري: (قال هشام) قال أبو مخنف: حدثني أبو يوسف عن عبدالله ابن عوف الأحمري، قال: بعث سليمان بن صرد إلى وجوه أصحابه حين أراد الشخوص وذلك في سنة ٦٥ فأتوه، فلما استهل الهلال هلال شهر ربيع الآخر خرج في وجوه أصحابه، وقد كان واعداً أصحابه عامة للخروج في تلك الليلة للمعسكر بالنخيلة، فخرج حتى أتى عسكره فدار في الناس ووجوه أصحابه فلم يعجبه عدة الناس، فبعث حكيم بن منقذ الكندي في خيل، وبعث الوليد بن غضين الكناني في خيل، وقال: اذهبا حتى تدخلا الكوفة، فناديا (يا لثارات الحسين)، وابلغا المسجد الأعظم فناديا بذلك.

فخرجا وكانا أول خلق الله دعوا (يا لثارات الحسين).

(قال) فأقبل حكيم بن منقذ الكندي في خيل، والوليد بن غضين في خيل، حتى مرّا ببني كثير، وإن رجلاً من بنى كثير من الأزد يقال له عبدالله بن خازم مع امرأته سهلة بنت سبرة بن عمرو من بنى كثير، وكانت من أجمل الناس وأحبّهم إليه، سمع الصوت (يا لثارات الحسين) وما هو ممن كان يأتيهم ولا استجاب لهم، فوثب إلى ثيابه فلبسها ودعا بسلاحه وأمر بإسراج فرسه، فقالت له امرأته: ويحك! أجننت!؟

قال: لا والله، ولكني سمعت داعي الله فأنا مجيبه، أنا طالب بدم هذا الرجل حتى أموت أو يقضي الله من أمري ما هو أحب إليه.

فقالت له: إلى من تدع بنيك هذا!؟

قال: إلى الله وحده لا شريك له، اللهم إني أستودعك أهلي وولدي، اللهم احفظني فيهم.

- وأظن بأن التوابون اكتفوا بثلاثة أمور ظاهرة في كسب التأييد لقضيتهم، وهي:

١. حالة الغليان في أوساط الشيعة وعامة المسلمين بسبب ما حصل لابن بنت رسول الله ﷺ وسيد شباب أهل الجنّة على يد مجموعة من الزنادقة والمنافقين والكفرة.

٢. سمعة سليمان بن صرد الخزاعي والتفاف كبار الشيعة ورؤوسهم حوله وتَوافُقهم على قيادته، ويشير إلى ذلك كلام رفاعة بن شدّاد حين بدأوا تداول هذا الأمر، حيث قال للمسيّب بن نجبة: (ولّوا أمركم رجلاً منكم تفزعون إليه وتحفّون برايته، وذلك رأي قد رأينا مثل الذي رأيت، فإن تكن أنت ذلك الرجل تكن عندنا مرضيّاً وفينا متنصّحاً في جماعتنا محبّاً، وإن رأيت ورأى أصحابنا ذلك وليّنا هذا الأمر شيخ الشيعة صاحب رسول الله ﷺ وذا السابقة والقدم سليمان بن صرد، المحمود في بأسه ودينه والموثوق بحزمه).

٣. فقه الشيعة النابع من أهل بيت النبوة والإمامة وتأويلهم الدقيق للآيات والسنن الشرعية المسوّغة لقيامهم وحركتهم، ومن ذلك الآية ٥٤ من سورة البقرة، حيث أشار إلى تأويلها ابن صرد وهو يقنع أصحابه بشرعيّة خروجهم، فقال لهم: كونوا كالأولى من بني إسرائيل إذ قال لهم نبيهم ﴿إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ﴾(البقرة ٥٤)، فما فعل القوم؟ جثوا على الركب والله ومدّوا الأعناق ورضوا بالقضاء حتى حين علموا أنه لا ينجيهم من عظيم الذنب إلا الصبر على القتل، فكيف بكم لو قد دُعيتم إلى مثل ما دُعي القوم إليه؟ أشحذوا السيوف وركّبوا الأسنّة ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ﴾(الأنفال ٦٠) حتى تُدعوا حين تُدعوا وتُستنفروا.

هل كان «التوابين» وصفاً لهم؟ أم هويّةً؟ أم شعاراً عاطفيّاً؟

مثّل تعبير «التوابين» أداة قوية خدمت الحركة في الجوانب التالية:

١. شكّل التعبير توصيفاً دينياً لهم، فهم من الناحية الدينية يريدون التوبة عن الخطأ الذي وقعوا فيه بعدم نصرة ابن بنت نبيهم ﷺ، وبالتالي فإن غايتهم الشرعية هي التكفير عن ذلك الخطأ والذنب.

٢. كما إن ذلك الاسم والتوصيف ولّد مبرراً سياسياً لقيام حركتهم، فالتطبيق العملي للتكفير عن ذنبهم هو القيام في وجه مرتكبي جرم قتل الإمام عليه السلام ومحاربتهم وإبادتهم من على وجه الأرض، ولم يكن ذلك ممكناً في ذلك الظرف إلا عبر القيام في وجوههم بالسيف.

٣. من جهة ثالثة كان لذلك الشعار والتوصيف تأثيراً عاطفياً حتى على غير الشيعة من عامة المسلمين، وكان له أثر في ازدياد حجم التأييد لحركتهم، وقد أشار إلى ذلك سليمان حين خاطبهم بالقول: (بثّوا دعاتكم في المِصْر، فادعوا إلى أمركم هذا شيعتكم وغير شيعتكم، فإني أرجو أن يكون الناس اليوم حيث هلك هذا الطاغية أسرع إلى أمركم استجابةً منهم قبل هلاكه).

ففعلوا وخرجت طائفة منهم دعاة يدعون الناس، فاستجاب لهم ناس كثير بعد هلاك يزيد بن معاوية أضعاف من كان استجاب لهم قبل ذلك.

الخلاصة

والخلاصة هي إن حركة التوابين كانت حركة احتجاجية عبقرية واستراتيجية ولم تكن عاطفية بمعنى عدم الاسترشاد للعقل، وإن غاياتها الكبرى كانت تعبئة الرأي العام ضد الأمويين، وتحفيز الشيعة على النهوض من جديد لنصرة آل بيت نبيهم صلوات الله عليهم أجمعين.

المصادر

١. ابن طاووس، السيد عبدالكريم بن أحمد بن موسى بن جعفر. **فرحة الغري في تعيين قبر أمير المؤمنين عليه السلام في النجف**، الطبعة الأولى المحققة، (١٤٣١ه/ ٢٠١٠م)، تحقيق: نجف، الشيخ محمد مهدي، العتبة العلوية المقدسة، النجف الأشرف.

٢. جعفر، صادق. **الإحياء: السيرة الاستراتيجية للإمام السجاد علي بن الحسين عليه السلام: كيف أحيا أمر الإمامة والدين والشريعة**، ١٤٤١هـ/ ٢٠١٩م، (مخ).

٣. الشريف المرتضى، أبي القاسم علي بن الحسين. **تنزيه الأنبياء**، الطبعة الثانية، (١٤٠٩ه/ ١٩٨٩م)، دار الأضواء، بيروت.

٤. الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير. **تاريخ الأمم والملوك**، منشورات بيت الأفكار الدولية، الرياض.

٥. المنقري، نصر بن مزاحم. **وقعة صفين**، الطبعة الثانية، (١٩٦٢م/ ١٣٨٢ه)، منشورات مكتبة آية الله العظمى المرعشي النجفي، قم المقدسة.

أسماء

تصدر عن:
رضوى للإنتاج الثقافي

للمراسلات:
asmaaletterhead@gmail.com

توضيح:
محتوى **أسماء** متاح للراغبين في الاقتباس، مع ملاحظة نسب الاقتباسات إلى النشرة.

رضوى
للانتاج الثقافي